

خطبة الجمعة القادمة بعنوان: الإمام الشافعي ودوره التجديدي في عصره

بتاريخ: 5 ربيع الآخر 1442هـ - 20 نوفمبر 2020م

عناصر الخطبة:

العنصر الأول: منزلة الإمام الشافعي العلمية والخلقية

العنصر الثاني: الإمام الشافعي رائد التجديد في عصره

العنصر الثالث: حاجة الأمة إلى التجديد

الموضوع

الحمد لله القائل في كتابه الكريم: { يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ } (المجادلة: 11) . وأشهد أن لا إله

إلا الله وحده لا شريك له؛ وأشهد أن محمدا عبده ورسوله . أما بعد:

العنصر الأول: منزلة الإمام الشافعي العلمية والخلقية

عباد الله: نحن اليوم مع علم من أعلام الفقه الإسلامي ؛ وأحد الفقهاء الأربعة ؛ الإمام محمد بن إدريس الشافعي؛ ولد - رحمه الله - عام 150 هـ ونشأ يتيما في بيئة فقيرة ؛ لم يملك أدوات الدراسة ؛ وكان يحضر مجالس الإمام مالك ؛ وحدثت قصة عجيبة أمام أستاذه مالك . فكان من شدة فقر الإمام الشافعي يبل إصبعه السبابة بريقه ويكتب بها ويمررها على كفه اليسرى؛ فرآه الإمام مالك فظن أنه يلهو ويلعب في مجلس العلم ؛ فسأله عن ذلك؟ فأجاب الشافعي: لا أملك ما أشتري به ألواح الكتابة فأكتب كل حديث أسمع على كف يدي اليسرى ثم أمسحه وأكتب الذي بعده ؛ فتعجب الإمام مالك وقال له أتخفظ هكذا كيف ذلك ؟ فقال الشافعي نعم وأحفظها جميعاً وإن شئت أسمعك كل حديثك اليوم ، فقال الإمام مالك في تعجبٍ وتستطيع أن تفعل ذلك !!؟ أجب الشافعي نعم أفعل ، فقال له الإمام مالك إذن أسمعني . فأخذ الشافعي يحدث ويقول: حدثنا مالك عن فلان عن فلان عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ويذكر الحديث ثم الحديث الذي يليه ، حتى ساق له كل حديثاً ذكره ما ترك حديثاً ، فانبهر الإمام مالك من شدة حفظه وذكائه فقربه الإمام مالك منه وجعله في الصفوف الأولى .

وقد سئل الإمام الشافعي: كيف شهوتك للعلم؟ قال: أسمع بالحرف مما لم أسمع، فتود أعضائي أن لها أسماً تتنعم به مثل ما تنعمت به الأذنان، فقيل له: فكيف حرصك؟ قال: حرص الجموع المتنوع في بلوغ لذته للمال، فقيل له: فكيف طلبك له؟ قال: طلب المرأة المضلة ولدها ليس لها غيره.

وقد كانت أم الإمام الشافعي رحمه الله تذهب إلى ديوان أمير البلدة وتلتقط الأوراق التي يلقونها لكي تعطبها للشافعي ، كي يكتب على ظهرها ما حفظ ، وأيضاً كانت تحضر له جلود الإبل لكي يكتب عليها العلم؛ فيها لها من امرأة عظيمة كانت تقدر العلم وبفضلها صار ابنها من أعظم الأئمة !!

ومع كل هذه الصعاب كان الإمام الشافعي له باع طويل في العلوم الشرعية والعربية كلها ؛ فهو مؤسس علم أصول الفقه، وهو أيضاً إمام في علم التفسير وعلم الحديث، وقد عمل قاضياً عُرف بالعدل والذكاء.. وإضافةً إلى العلوم الدينية، كان فصيحاً شاعراً، ورامياً ماهراً، ورحلاً مسافراً.

وكان معروفاً بشدة ذكائه وفطنته وقد ذكرنا قصتين في الخطبة الماضية ؛ وأكتفي اليوم بقصة واحدة من ذلك: ومما روي عن ذكائه أنه كان ذات مرة جالساً مع الحميدي ومحمد بن حسن يتفرسون الناس، فمر رجل فقال محمد بن الحسن: «يا أبا عبد الله انظر في

هذا»، فنظر إليه وأطال، فقال ابن الحسن: «أعيك أمره؟»، قال: «أعياني أمره، لا أدري خياط أو نجار»، قال الحميدي: فقلت إليه فقلت له: «ما صناعة الرجل؟»، قال: «كنت نجاراً وأنا اليوم خياط».

وكان رحمه الله قد وضع لنفسه منهجاً علمياً واضحاً، فكان يقول: كل متكلم على الكتاب والسنة هو الجد، وما سواه هو الهذيان، ويقول: إذا وجدتم في كتابي خلاف سنة رسول الله فقولوا بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعوا ما قلت، وإذا صح الحديث فهو مذهبي، وإذا صح الحديث فاضربوا بقولي عرض الحائط، أي سماء تظلني، وأي أرض تقلني إذا رويت عن رسول الله حديثاً فلم أقل به؟ فقد كان رائداً أثرى الحياة العلمية الإسلامية.

وكان الإمام الشافعي (رحمه الله) إماماً في الإيمان والتقوى والورع والعبادة؛ فعن الربيع قال: "كان الشافعي قد جزأ الليل ثلاثة أجزاء: الثلث الأول يكتب، والثلث الثاني يصلي، والثلث الثالث ينام". وكان رحمه الله لا يقرأ قرآناً بالليل إلا في صلاة، يقول المزني: "ما رأيت الشافعي قرأ قرآناً قط بالليل إلا وهو في الصلاة".

وكان مخلصاً في طلب العلم. يقول: "وددت أن الناس تعلموا هذا العلم، ولم ينسب إلي منه شيء، فأوجر عليه، ولا يحمديني". شهد له القاضي والداني من العلماء: قال عنه أبو عبيد القاسم بن سلام: (ما رأيت أحداً أعقل ولا أروع ولا أفصح ولا أنبل رأياً من الشافعي). وقال الكرابيسي: (ما رأيت مجلساً قط أنبل من مجلس الشافعي، كان يحضره أهل الحديث، وأهل الفقه، وأهل الشعر، وكان يأتيه كبار أهل اللغة والشعر، فكل يتكلم فيه) رضي الله عنه.

وكان له علاقة وطيدة بأهل التصوف؛ قال ابن القيم في كتابه "المدارج": "قال الشافعي رضي الله عنه: "صحبت الصوفية فما انتفعت منهم إلا بكلمتين سمعتهم يقولون: "الوقت سيف فإن قطعتة وإلا قطعك؛ ونفسك إن لم تشغلها بالحق وإلا شغلتك بالباطل". "قلت: (أي ابن القيم) يا لهما من كلمتين ما أنفعهما وأجمعهما وأدلهما على علو همة قائلها ويقظته؛ وبكفي في هذا ثناء الشافعي على طائفة هذا قدر كلماتهم". إهـ

ومع كل هذا فإن الإمام الشافعي الذي ملأ الدنيا بعلمه وإخلاصه وورعه وتقواه؛ يرى نفسه عاصياً ومقصراً في حق الله تعالى؛ ويبحث جاهداً عن صحبة الصالحين؛ ليشفعوا له في الآخرة؛ فيزور الإمام أحمد بن حنبل وينشده قائلاً:

أحب الصالحين ولست منهم * وأرجو أن أنال بهم شفاعة**

وأكره من تجارته المعاصي * وإن كنا سواء في البضاعة**

فقال له من يعرف الفضل لأهله إمام أهل السنة أحمد بن حنبل رحمه الله:

تحب الصالحين وأنت منهم * رقيق القوم يلحق بالجماعة**

وتكره من بضاعته المعاصي * حماك الله من تلك البضاعة**

فإذا كان هؤلاء الأصفياء الأتقياء الأنقياء يفعلون ذلك؛ فماذا نحن فاعلون!!؟

العنصر الثاني: الإمام الشافعي رائد التجديد في عصره

عباد الله: مما لا شك فيه أن الإمام الشافعي كان رائد حركة التجديد في عصره؛ يقول الإمام أحمد بن حنبل فيه: "ويروى عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله: (إن الله عز وجل يبعث هذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها). (أخرجه أبو داود والحاكم وصححه). فكان عمر بن عبد العزيز على رأس المائة، وأرجو أن يكون الشافعي على رأس المائة الأخرى.

وقال الإمام أحمد بن حنبل قولته الخالدة الجميلة: لولا الشافعي ما تعلمنا فقه الحديث، وقال: كان الفقه مغلقاً على أهله حتى فتحه الله بالشافعي، وقال: ما من أحد مسَّ محبرة ولا قلماً بعد الشافعي إلا وله في عنقه منّة، وقال: والله ما أعلم أحداً أعظم منة وبركة على الإسلام في زمن الشافعي من الشافعي.

وقال عبد الله بن الإمام أحمد: قلتُ لأبي: أي رجل كان الشافعي؟ فإني سمعتك تكثر من الدعاء له، قال: يا بني، كان كالشمس للدينا، وكالعافية للناس؛ فهل لهذين من خَلَفٍ أو منهما عِوَضٌ؟ ولا غَرَوَ أن يُدعى لمثل هذا في الصلاة، وإني لأدعو للشافعي منذ أربعين سنة في صلاتي..؛ وقال عبد الرحمن بن مهدي: "لما نظرت في الرسالة للشافعي أذهلتني لأنني رأيت كلام رجل عاقلٍ، فصيح نصيح، فإني أكثر الدعاء له، وما ظننت أن الله خلق مثل هذا الرجل".

فالإمام الشافعي - رحمه الله - لم يحصر نفسه في دائرة علم الحديث وحده، أو الفقه وحده، بل كان محدثاً فقيهاً وفقهياً محدثاً، بل تعداهما إلى أن يكون حجة في غيرهما، كاللغة، والشعر، والأنساب، حتى أصبح رائد حركة التجديد في العلوم كلها؛ قال الإمام أحمد بن حنبل: "الشافعي فيلسوف في أربعة أشياء: في اللغة، واختلاف الناس، المعاني والفقه" وقال الزعفراني: "كان أصحاب الحديث رقوداً، فأيقظهم الشافعي فتيقظوا".

ومما يدل على دور الشافعي في حركة التجديد أنه أسس مذهبه في العراق؛ ثم أتى إلى مصرنا الحبيبة فعدل عن بعض فتاويه؛ فأصبح له القديم في العراق؛ والجديد في مصر؛ والذي دفعه إلى ذلك أنه رأى - لتغيير المكان والزمان - أن فتاويه أصبحت لا تناسب العصر والظرف المكاني الذي يتواجد فيه، فتراجع عنها بما يناسب صحيح الدين وظروف البلاد. فالفقيه يجوز له أن يغير فتواه بتغير الزمان والمكان، بل هذا ممكن في المسائل الاجتهادية المبنية على العرف والمصالح ورفع الحرج، أما المسائل المبنية الثابتة على الأدلة الشرعية الصحيحة، فهي ثابتة وصالحة لكل زمان ومكان. وعندما أراد الشافعي السفر إلى مصر قال هذه الأبيات:

لقد أصبحت نفسي تنوق إلى مصر ومن دونها قطع المهامة والقفير

فوالله ما أدري، أالفوز والغنى أساق إليها أم أساق إلى القبر

قيل: فوالله لقد سبق إليهما جميعاً.

وكان رحمه الله دائماً يمسك العصا فليل له: ما لك تدمن إمساك العصا ولست بضعيف؟ قال: لأذكر أي مسافر، يعني: في الدنيا. ((عابر سبيل)) عملاً بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، قال: أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي، فقال: «كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ» وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ، يَقُولُ: «إِذَا أَمْسَيْتَ فَلَا تَنْتَظِرِ الصَّبَاحَ، وَإِذَا أَصْبَحْتَ فَلَا تَنْتَظِرِ الْمَسَاءَ، وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ، وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ» (البخاري).

ولما حانت ساعة الرحيل خاف الوعيد، ورجا ربه العفو والتسديد، فقد أحَّ عليه المرض ووقف الموت ببابه ينتظر انتهاء الأجل. وفي هذه الحال، دخل عليه تلميذه المزني فقال: كيف أصبحت؟ قال: "أصبحتُ من الدنيا راحلاً، وللإخوان مفارقاً، ولكأس المنية شارباً، وعلى الله واردة، والله ما أدري روعي تصير إلى الجنة فأهنتها، أو إلى النار فأعزيتها"، ثم بكى. وأنشأ يقول:

ولما قسا قلبي وضاقت مذاهبي * جعلت رجائي دون عفوكم سلماً

تعاطمني ذنبي فلما قرننه * بعفوك ربي كان عفوكم أعظماً

فما زلت ذا عفو عن الذنب لم تنزل * تجود وتعفو منة وتكرماً

فإن تنتقم مني فلست بأيسر * ولو دخلت نفسي بجرمي جهنماً

